عظيم تواضع سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم

مع أصحابه

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة ٢٤٤ حتى الصفحة ٢٥٣

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

عظيم تواضعه ﷺ مع أصحابه

قال الله تعالى : ﴿ واخفِضْ جناحَك للمُؤمنين ﴾ .

كان رسول الله ﷺ له المثل الأكمل في التواضع مع علوِّ مقامه ، وشرف جنابه ، ويتجلَّى تواضعه ﷺ في سائر أحواله الخاصة والعامة ، وأموره الخارجية ، والداخلية البيتيَّة .

---

(١) أورد هذا الحديث الحافظ ابن كثير في (تفسيره) آخر سورة التوبة وقال : رواه البزار ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه . قلت : وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم . اهـ . وأورده في (مجمع الزوائد) ونبه على ضعفه . وقال العلامة الخفاجي في (شرح الشفاء) : ٢ : ١٧ : وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن حبان في (صحيحه) وابن الجوزي في (الوفاء) اهـ .

فكان من تواضعه ﷺ أن يخدِم نفسه بنفسه :

قالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله ﷺ يَخِيط ثوبَه ويخصِفُ نعلَه ، ويعملُ ما يعملُ الرجال في بيوتهم)[1] .

وفي رواية : (ويَرْقَعُ دلوه ، وَيَفْلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدِم نفسه ﷺ)[2] ، رواه أحمد وابن حبان وصححه وابن سعد .

ومن تواضعه ﷺ : أنه كان يركب الحمار ، ولا يخص نفسه بركوبِ الخيلِ ، كما هو عادة الملوك والأمراء :

روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ، ويشهدُ الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ؛ وكان يوم بني قُرَيظة على حمار ، مخطوم بحبل من ليف ، وعليه إكاف من ليف)[3] .

ومن تواضعه ﷺ : أنه كان يُردِف وراءه بعض نسائه :

كما روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من خيبر ، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسيرُ وبعضُ نساء

---

(١) أي : من الاشتغال بمهنة الأهل والنفس .

(٢) هذا لا ينافي أنه ﷺ كان يسمح لبعض أصحابه أن يخدمه كأنس وغيره ، ليتشرفوا بخدمته ويستفيضوا من بركاته ﷺ ، وليس ذلك من باب التعاظم والترفع .

(٣) يعني أنه ﷺ ذهب لحرب بني قريظة فركب حماراً خطامه ـ أي : زمامه ـ وإكافه ـ أي : بردعته ـ من ليف ـ والبردعة للدواب كالسرج للفرس . اهـ (حاشية الباجوري) .

رسول الله ﷺ رديفُ رسول الله ﷺ إذ عثَرت الناقة ، فقلتُ : المرأةَ ـ أي : وقعت المرأة أعينونا ـ فنزلتُ ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها أُمُّكم »[1] فشددت الرحل ، وركب رسول الله ﷺ ، فلما دنا ـ أو : رأى المدينة ـ قال : « آيبون تائبون عابدون ، لربِّنا حامدون » .

بل كان يردف خلفه بعض أصحابه ، وصبيانَ أصحابه ، ولا يستنكف من ذلك كما تأنف الكبار والأمراء :

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (أتى رسولُ الله ﷺ مكة وقد حمل قُثَمَ ـ ابن العباس ـ بين يديه ، والفضلَ ـ أخاه ـ خلفه ﷺ ، أو : قُثَمَ خلفه ، والفضل بين يديه ـ شكَّ الراوي ـ) .

وفي (الصحيحين) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنتُ وراء النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلَّا مُؤخِّرة[2] الرحل ، فقال : « يا معاذ بن جبل » .

قلت : لبَّيك رسول الله وسعْديك .

ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » .

قلت : لبيك رسولَ الله وسعْديك .

ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » .

---

(١) يذكرهم بوجوب التعظيم لها ، وكانت المرأة هي صفية بنت حيي أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٢) بالتخفيف والتثقيل ، هي آخرة الرحل ، وهو العود الذي خلف الراكب ، والذي أمامه يسمى : قادمة الرحل ، ومقدمة الرحل .

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

قال : « هل تدري ما حقُّ الله على العباد ؟ » .

قال معاذ : قلت : الله ورسولهُ أعلم .

قال : « فإنَّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » .

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

قال : « هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » .

قلت : الله ورسولُه أعلم .

قال : « أن لا يعذبهم » .

ومن تواضعه ﷺ : مِشْيته مع الأرملة والمسكين والأَمَة :

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ـ وكان في عقلِها شيء ـ فقالت : إنَّ لي إليك حاجةً .

فقال ﷺ : « إجلسي في أيِّ سِكك ـ أي : طُرُق ـ المدينة شئتِ ، أجلسْ إليك حتى أقضيَ حاجتَكِ » .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : إنْ كانت الأَمَةُ لتأخذُ بيدِ رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت ـ وفي رواية أحمد : فتنطلق به في حاجتها ـ أي : ليقضيَ لها حاجتها بنفسه الكريمة ﷺ .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يُكثر الذِّكر ، ويُقلُّ اللَّغْوَ ، ويُطيل الصلاةَ ، ويقصِّر الخطبة ، ولا يأنفُ أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة) .

ومن تواضعه ﷺ وتكريمه لعباد الله المسلمين :

مـا روى الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في حجة النبي ﷺ : (أنَّ النبي ﷺ أتى السِّقاية فقال : « اسقوني » .

فقالوا : إنَّ هذا يخوضه الناس ، ولكنا نأتيك به من البيت .

فقال : « لا حاجة لي فيه ، اسقوني ممّا يشرب الناس . . . ») الحديث .

فانظر في هذا التواضع العظيم ، من صاحب الخلق العظيم ! لم يقبل أن يُؤتى بشرابٍ خاص له ﷺ ، وأبى إلاَّ أن يشربَ ممَّا يشربُ منه الناس ، ولو خاضتْ فيه أيديهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يبعث إلى المطاهر[1] فيُؤتى بالماء فيشربه ، يرجو بركة أيدي المسلمين رواه الطبراني[2] .

ومن تواضعه ﷺ :

ما جاء في (سنن) الترمذي وأبي داود وغيرهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن رسول الله ﷺ في العمرة ، فأذن له وقال له : « يا أخي يا عمر أشْرِكني بدعائك ـ وفي رواية : لا تنسني من دعائك » .

---

(١) قال المناوي : المراد بالمطاهر هنا : الحياض والفساقي والبرك المعدة للوضوء . اهـ .

(٢) وأبو نعيم في (الحلية) ، كما في (الجامع الصغير) ، وقال الحافظ الهيثمي : رجاله موثقون ومنهم عبد العزيز بن أبي رواد ثقة نسب إلى الإرجاء . اهـ .

أمره ﷺ بالتواضع

روى الإمام مسلم عن عياض بن حمار في حديث طويل قال فيه رسول الله ﷺ : « وإنَّ الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخَرَ أَحدٌ على أحد ، ولا يبغي أحدٌ على أحد » .

تواضعه صلى الله عليه وسلم
واختياره أن يكون نبياً عبداً لا نبياً ملكا

إنَّ من أعظم ما يدلُّ على تواضعه ﷺ : أنه لمّا خيَّره الله تعالى بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبياً ملِكاً ، اختار العبدية تواضعاً لله تعالى .

روى الطبراني بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يومٍ وجبريلُ عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمدٍ سَفَّة من دقيق ، ولا كَف من سَويق » .

فلم يكن كلامُه بأسرع من أن سمع هَدَّة من السماء أفزعته .

فقال رسول الله ﷺ : « أمرَ الله القيامة أن تقوم ؟ » .

فقال ـ جبريل ـ : لا ، ولكن أمرَ إسرافيلَ فنزل إليك حين سمع كلامك .

فأتاه إسرافيلُ فقال : إنَّ الله تعالى سمع ما ذكرتَ ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أَعْرِض عليك أَن أسيِّرَ معك جبال تِهَامة زُمُرُّداً وياقوتاً وذهباً وفضَّة ! فإن شئتَ نبياً مَلِكاً ، وإن شئتَ نبيّاً عبداً ؟ .

فأومأ إليه جبريل أَنْ تواضَعْ .

فقال ﷺ : « بل نبيّاً عبداً » ثلاثاً .

كذا في (ترغيب) المنذري وقال : رواه البيهقي في (الزهد) وغيره ، قال : ورواه ابن حبان في (صحيحه) مختصراً من حديث أبي هريرة ولفظه قال :

(جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملَك ينزل ، فقال له جبريل : هذا الملك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة .

فلما نزل قال : يا محمد أَرسَلَني إليك ربُّك : أَملِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً ؟ .

فقال له جبريل : تواضعْ لربِّكَ يا محمد .

فقال رسول الله ﷺ : « لا ، بل عبداً رسولاً ») . كذا في (الترغيب) .

قلت : وهذا اللفظ أيضاً واردٌ في (مسند) أحمد عن أبي هريرة أيضاً[1] .

ولا ريب أنَّ هناك فرقاً بين مقام الملكية والعبودية ، فإنَّ مقام الملكية يتطلَّب اتخاذ الجنود ، واتخاذَ الحجَّاب والخيول ، واتخاذ الخدم والقصور ، ويتطلب الانتقام لمن يتعرَّض بالأذى لنفس الملك .

وأمّا مقام العبوديَّة : فإنه يقتضي أن يخدِمَ نفسه ، وأن يكونَ في

---

(١) وقال الحافظ الهيثمي : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح . اهـ .

معونة أهله ، تواضعاً منه ﷺ ، ويقتضي العفوَ والصفَّح عمَّن آذاه في نفسِه ﷺ ، أمّا إذا انتهكتْ حرماتُ الله تعالى فينتقم لله تعالى .

ولذلك كان يقول : « آكُلُ كما يأكل العبد »[1] أي : في القعود وهيئة التناول ، والرضا بما حضر تواضعاً لله تعالى وأدباً معه ، فلا آكُلُ متكئاً كما يفعل أهلُ الرفاهية والانبساط في الدُّنيا ونعيمها .

وكان يقولُ : « أجلِسُ كما يجلِس العبد » أي : لا كما تجلس الملوكُ الجبابرة ، فإنَّ التخلقَ بأخلاق العبودية أشرفُ الأوصاف البشرية .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشةُ لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب ! .

أتاني ملَكٌ إلى حجرة الكعبة فقال : إنَّ ربَّك يُقرئك السلامَ ويقول لك : إن شئتَ كنتَ نبياً ملِكاً ، وإنْ شئتَ نبياً عبداً .

فأشار جبريل : أن ضعْ نفسَك ـ أي تواضع ـ .

فقلتُ : نبياً عبداً » .

فكان بعدُ لا يأكُلُ متكئاً ، ويقول : « آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلِسُ العبد » رواه أبو يعلى وابن حبان وابن سعد .

قال في (فيض القدير) : ورواه البيهقي عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : « فإنما أنا عبد » .

---

(١) قال العلامة المناوي : المراد هنا بالعبد : الإنسان المتذلل المتواضع لربه تعالى . اهـ .

ورواه هنَّاد عن عمرو بن مرة وزاد : « فوالذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافراً كأساً »[1] .

وفي (سنن) أبي داود وابن ماجه عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه قال : كان للنبي ﷺ قصعةٌ ـ أي : إناء كبير يوضع فيه الثريد ليأكلَه الجماعة ـ يقال لها الغرَّاء يحملها أربعة رجال ، فلما أَضْحَوا ـ أي : دخلوا في وقت الضُّحى بعد طلوعِ الشمس ـ وسجدوا ـ أي : صلُّوا ـ الضُّحى ، أُتي بتلك القصعة يعني وقد أُثْرِدَ فيها ـ أي : وُضع فيها الثريد ـ فالتفُّوا عليها ، فلما كثروا جثا رسولُ الله ﷺ ـ أي : جلس على ركبتيه ـ .

فقال أعرابي : ما هذه الجلسة ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله جعلني عبداً كريماً ، ولم يجعلْني جباراًعنيداً » ثم قال رسول الله ﷺ : « كُلوا من جوانبِها ، ودعوا ـ أي : اتركوا ـ ذروتها ـ أعلاها ـ يُبارِكْ لكم فيها » .

ولما كان سيدنا محمد ﷺ هو أعظمَ من تحقق بمقامات العبدية والعبودية لله تعالى ، وهو أشرف مَن كمُلتْ له مراتبُها العالية : لذلك وصفه الله تعالى في أعلى مقاماته بالعبدية فقال سبحانه : ﴿ وأنَّهُ لَّما قامَ عبدُ الله يدعوهُ كادُوا يكونونَ عليه لِبَداً ﴾ .

وقال سبحانه في مقام إنزال الكتاب عليه : ﴿ الحمدُ لله الذي أنزل على عبدِه الكتابَ . . ﴾ الآية .

---

(١) انظر (فيض القدير) ١ : ٥٥ وقال : ولتعدد هذه الطرق رمز المصنف ـ السيوطى ـ لحسنه . اهـ .

وقال تعالى في مقام الفرقان والنصر والبرهان : ﴿ إِنْ كنتمْ آمنتُم بالله وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعان . . ﴾ الآية .

وقال تعالى في مقام التحدّي : ﴿ وَإِنْ كنتُم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ مِن مثلِه . . ﴾ الآية .

وقال تعالى في مقام الإسراء : ﴿ سبحانَ الَّذِي أَسرى بعبدِه ليلاً . . ﴾ الآية .

ولذلك كان هو ﷺ صاحبَ مقام الوسيلة ، الذي هو أعلى منزلة في الجنة ، فقد قال ﷺ : « . . ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلةٌ ـ أي : خاصَّة ـ في الجنة لا ينبغي أن تكون إلاَّ لعبد ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة . . » الحديث كما في (صحيح) مسلم .